ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص451-467

دور الكاردينال بيساريون في بعث الحركة الصّليبيّة في الغرب (1450- 1472م)

The role of Cardinal Bessarion in the emergeance of the crusade idea (1450-1472)

زكية كربال
جامعة الجزائر 02 (الجزائر)
histoireeduc@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/04/14
تاريخ القبول:
2022/05/11

الكلمات المفتاحية:
- ✓ بيساريون
- ✓ الإمبراطورية البيزنطيّة في القرن 15م
- ✓ العثمانيّون
- ✓ البابوية في القرن 15م

الملخص:

عاد بيساريون إلى إيطاليا عام 1440م، عقب موجة السّخط التي عمّت مدينة القسطنطينيّة وما جاورها، تنديدا بمرسوم الوحدة مع روما (جويلية 1939م). لم يَطُلْ المقام بهذا الإنساني الإغريقي في الغرب، حتى اندمج في وسطه اللاّتيني الجديد، وإليه يرجع الفضل في الكشف عن جزء هام من التراث الإغريقي الكلاسيكي وتعريف الغرب الأوروبي بهذا الموروث الفكري. وخلال تواجد الكاردينال بيساريون في إيطاليا، لم يتوقّف باعتباره ممثّلا لعدد من باباوات القرن 15م، عن دعوة حكّام الغرب للمشاركة في حملة صليبيّة واسعة النّطاق، لاسترجاع القسطنطينيّة من العثمانيّين، لكن رغم كلّ جهوده لم تتمّ استعادة هذه العاصمة المسيحيّة الضّائعة، وتوفّي بيساريون وفي قلبه جرحٌ غائرٌ بفقدان الوطن.

Article info

Received:
14/04/2022
Accepted:
11/05/2022

Key words:
- ✓ Bessarion
- ✓ The Byzantine Empire in the Fifteenth Century
- ✓ Ottomans
- ✓ The Church in XV^{ch} century

Abstract:

Bessarion was defeated, was forced to return back to Italy (1440), where he stayed for ever. The Cardinal Bessarion, didn't hesitate to infiltrate himself with the latin humanists, it's due to his work those people were able to discover a considerable part of the greek classic heritage. The aspects have elaborated and detailed in one of my previous study. In fact, Bessarion played a role of a legal pontifical, the most actif and prefered, from 1450 til his death on 1472. He called the supreme masters of the West to enter under the sovereinty of the pope to led a great war with a wide dimensions against the Ottomans, but he faild.

مقدمة

شهد عدد من الأقاليم التّابعة للإمبراطورية البيزنطيّة سواءً تلك الواقعة في آسيا، شرق أوروبا أو شبه جزيرة البلقان، خلال القرن الرّابع عشر الميلادي، اجتياحا كاسحا وغير مسبوق للجيوش العثمانية، ليصبح هذا الفضاء الجغرافي تابعا للسّيادة العثمانية دون منازع.

لقد أدّت الأوضاع النّاجمة عن الغزو العسكري لمناطق النّفوذ البيزنطي، إلى هجرة جماعية للأسر النّافذة في هذه الأقاليم إلى مواطن أكثر أمنا. إضافة إلى ذلك، أدّى هذا الوضع الجديد إلى حدوث نزيف حقيقيّ في المجال الفكري. من ذلك أنّ عددا من رجال الفكر قرّروا مغادرة مواطنهم الأصلية وقد حملوا في حقائبهم ثروة فكرية إغريقيّة نادرة. فمنهم من اتّجه نحو منطقة البلقان، لكنّ أغلبهم أخذ طريقه نحو إيطاليا التي يعتبرها الإغريق موطنهم الثّاني بسبب الرّوابط التّاريخيّة التي تربط بيزنطة بإيطاليا، والتي تعود جذورها إلى القرن السّادس الميلادي – حينما شنّ الإمبراطور البيزنطي جوستينيان Justinien (527-565م) حملات الاستيراد، التي كان من نتائجها إلحاق أجزاء ممّا كان يشكّل الإمبراطوريّة الرّومانيّة، بالقسم الشّرقي منها.

استمرّت حركة الهجرة هذه، خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وهذه المرّة كان بيساريون[1] واحدا من الذين فرّوا إلى إيطاليا، على أعقاب موجة الغضب التي اشتعلت في القسطنطينيّة وما جاورها والتي عبّرت عن رفض أغلبيّة الإغريق تطبيق مرسوم الوحدة مع الكنيسة الرّومانيّة الذي تمّ التّوقيع عليه في فلورانسا (جويلية 1439م).

وخلال وجوده بإيطاليا، لعب بيساريون دورا حاسما في دعوة حكّام الغرب لضرورة تسيير حملة صليبيّة لتحرير الإمبراطوريّة البيزنطيّة، التي تعتبر، حضاريا ودينيّا، امتدادا للجزء اللاّتيني من أوروبا. لكنّ دعواته باءت بالفشل الذّريع.

من خلال هذه الدّراسة، سأتتبّع مسيرة بيساريون في الغرب وإسهاماته في الحقلين السّياسي والدّيني، وما هي الإمكانات التي توفّرت لديه ليكون مرّتين على مرمى حجر من العرش البابوي؟

1. الكاردينال بيساريون: ممثّلا للبابا نيقولا الخامس Nicolas V في مدينة بولونيا Bologne (1450-1455م)

عاد الكاردينال بيساريون إلى إيطاليا عام 1440م، عقب موجة السّخط التي عمّت مدينة القسطنطينيّة وما جاورها من المدن الأخرى تنديدا بخضوع الإغريق للكنيسة الرّومانية، بمقتضى مرسوم الوحدة الذي تمّ التّوقيع عليه في شهر جويلية عام 1439م، وخلال إقامته في إيطاليا، لم يضيّع بيساريون الوقت، بل إنّه اندمج وبشكل سريع في الحركة الفكريّة التي كانت تشهدها إيطاليا والأصقاع الأوروبيّة الأخرى في هذه المرحلة. ذلك أنّه أخذ يدرس اللّغة اللاّتينيّة باعتبارها آداة التّعامل آنذاك. وفي نفس الإطار، تنقل بين مختلف الجامعات الإيطاليّة قصد التّحصيل العلمي العالي، ليلتحق بيساريون بعد فترة من الزّمن بركب الإنسانيّين اللاّتين. وفي

الحقيقة أنّ ما زاد بيساريون رفعة ومكانة آنذاك، تكوينه المزدوج الإغريقي- اللاّتيني، أمر أهّله ليكون حلقة وصل بين الثّقافتين المذكورتين.

هكذا، أثار بيساريون، الوافد الجديد على الغرب، بثقافته الواسعة، ذكائه الحاد، وحنكته العالية، اهتمام ليس فقط الدّوائر العلمية في الغرب، ولكن أيضا الهيئة الدّينيّة المسيحيّة العليا والمتمثّلة في البابويّة. وفي هذا السّياق، شكّلت الخمسينات من القرن الخامس عشر الميلادي، محطّة مفصليّة في المسار الدّيني للكاردينال بيساريون، لقد أصبح ممثّلا لعدد من الباباوات الذين تعاقبوا على العرش الرّسولي في روما، مهمّة سامقة شغلها حتى وافته المنيّة.

وفي هذا الإطار أرسل البابا نيقولا الخامس[2] (Victor), 1951, Fliche (Augustin) et Martin) Nicolas V (1447-1455م) في السّادس والعشرين من شهر فيفري عام 1450م، (PP. 35- 37)، الكاردينال بيساريون بصفته ممثّلا بابويا إلى مدينة بولونيا Bologne – شمال إيطاليا وهي ثاني مدينة من حيث الأهمية بالنّسبة للكنيسة، بعد مدينة روما- ليس ها فحسب، بل إنّ صلاحيّة بيساريون امتدّت أيضا لتشمل مدينتي روماني Romagne وماركية أنكونا Ancône الواقعتين على بحر الأدرياتيك Adriatique.

في الواقع، كان اختيار البابا لشخص بيساريون ما يبرّره، ذلك أنّ الأصل الإغريقي لهذا الكاردينال من شأنه أن يلزمه الحياد في التّعامل مع مختلف الأطراف الإيطاليّة تجنّبا لإثارة الحساسيّات التي كانت دوما تصنع المشهد العام في أغلب مدن شبه الجزيرة هذه، وكانت النّتيجة، صراعا دائما وفوضى لا حدود لها.

الجدير بالقول أنّ البابا نيقولاس الخامس قد شدّد على ممثّله بأن يعمل دون كلل أو ملل لإقرار السّلم والسّكينة في ربوع مدينة بولونيا، إضافة إلى ذلك، تسلّم بيساريون من البابا رسالة كتابية موجهّة لسّكان بولونيا. عقب إنهاء كلّ التحضيرات الضّرورية، توجّه بيساريون والوفد المرافق له إلى بولونيا وكلّه عزم أن يكون في مستوى الثّقة التي وضعها في شخصه البابا نيكولاس الخامس، الزّعيم الرّوحي الأعلى للكاثوليك. وصل الوفد البابوي إلى بولونيا في اليوم السادس عشر من شهر مارس من نفس السنة (Pastor (le Dr. Louis), Tome Second, 1911, PP. 64- 65)، وهناك خصّ باستقبال حار يليق بالمقام السّامق للكاردينال بيساريون. وبعد التّعرف على وجهاء المدينة، أفصح هذا المبعوث عن فحوى الرسالة البابويّة التي جاء فيها: **"أرسل إليكم هذا الرّجل الرائع الذي يعد بمثابه ملاك للسلام. وإنّي على ثقة كاملة بأنّه، وبفضل حكمة إدارته، قادر على نشر السّعادة في ربوع بولونيا"**، إنّ هذه الرّسالة تعد بحق تزكية لبيساريون، وإشارة تدعو لزرع الطّمأنينة في نفوس البولونيّين الرّسميّين منهم وعامّة النّاس.

باشر بيساريون مهامّه في هذه المدينة، وإنّ أوّل ما قام به محاكمة العناصر التي ظلّت تثير البلبلة والشّغب في ربوع بولونيا التي أخلّت بالأمن العام، وعرقلت السّير الحسن لمختلف النّشاطات في المدينة. وفي إطار إصلاح الوضع المادّي للمدينة وإعادة ضخّ الأموال إلى خزينتها، واجه بيساريون وبكلّ صرامة ظاهرة

الفساد التي ضربت أطنابها في المجتمع. لقد أعلن حربا شعواء على مختلف أشكال البذخ والتّرف التي كانت تصنع يوميّات بعض الشّرائح الاجتماعيّة.

من ذلك أنّه أصدر أمرا بمنع ارتداء الثّياب الفاخرة والتي تمّت خياطتها أو طرزها بالخيوط المذهّبة، وفي حال مخالفة هذا القانون يتعرّض صاحب المخالفة لعقوبات صارمة. زيادة على ذلك، فتح بيساريون البابا في وجه الفقراء والمظلومين لتقديم شكاويهم لمَظلمة كانوا ضحيّة لها (Pastor (le Dr. Louis), Tome Second, 1911, P. 66).

هذه الإصلاحات، إضافة إلى رزنامة أخرى اتّخذها بيساريون في بولونيا، كانت كفيلة بنشر الطّمأنينة في النّفوس، ما انعكس إيجابيّا على مختلف مناحي الحياة بالمدينة.

الحقيقة أنّ دور بيساريون لم يقتصر على الجوانب السياسية، الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل كان له وقفة مشرّفة أيضا في الحقل الثّقافي. إنّه أحاط شريحة الانسانيين بالرّعاية التي يستحقّونها وقد استدعى عددا من الأساتذة الأكفاء للقيام بمهمّة التّدريس بجامعة بولونيا العتيقة، بعدما أُدخلت عليها سلسلة من التّرميمات والتي مسّت مختلف الأقسام والمعاهد بها ولتحفيز وتشجيع المدرسين على المزيد من العطاء، أمر بيساريون بأن تصرف لهم أجور مغرية. ولم يستثن من الرعاية أيضا شريحة الفنانين الذين زيّنوا بأناملهم الذهبيّة مختلف المنشآت بالمدينة (Pastor (le Dr. Louis), T. II, 1911, P. 65; Vast (Henri), 1878, PP. 186-187).

وفي هذا السياق وجّه تعليماته للمعماريين والنّحاتين للقيام بتزيين عدد من كنائس المدينة لإعطائها رونقا يليق بعراقتها (Pastor (le Dr. Louis), T. II, 1911, PP. 64- 67).

ومن صور التّشجيع لهذه الشريحة ما أقدم عليه بيساريون من تقديم مكافأة مالية باهظة للمعماري الشّهير رودولف فيورافنتي ألبرتي Rodolphe Fioravanti Degli Alberti نظير عمله الجبّار الذي تمثّل في التّحريك الذي أجراه على مساحة خمسة وثلاثين قدم للبرج الشّهير الموجود في المدينة ويحمل اسم دلا مازيون Della Mazione دون أن يلحق بهذا المعلم التّاريخيّ الشّهير ضرر يُذكر (Le P. Pierling (S.J.), 1896, PP. 200- 201).

لم تتوقّف إسهامات بيساريون عند هذا الحدّ، بل كان له إسهام مشرّف على مستوى السّياسة الخارجيّة لبولونيا، ذلك أنّه عمل جاهدا لمجابهة الأطماع المتنامية للبنادقة، الفلورنسيّين والميلانيّين، وجميعهم حوّلوا بولونيا لحلبة التّنافس حول خيراتها (Vast (H.), 1878, P. 178)، ممّا أضفى على المدينة فيما مضى جوّا من الفوضى الدّائمة.

هكذا، عمل الكاردينال بيساريون خلال وجوده في بولونيا بكلّ جدّ وتفان على إقرار النّظام في ربوعها، وإعادة الطّمأنينة إلى نفوس سكّانها، واستحقّ أن ينال نظير ذلك المجهود الجبّار، محبّة الأهالي الذين خلّدوا

مروره بمدينتهم بعبارتي المحسن للمدينة (Pastor (le Dr. Louis), T. II, 1911, P.67)، اعترافا مشهودًا يعدّ بمثابة وسام شرف في جبين الكاردينال بيساريون، وصفحة مشرقة في مشواره تُنبِؤُ بمستقبل واعد لا محال.

2. الكاردينال بيساريون ضمن المرشّحين لخلافة البابا نيقولاس الخامس المتوفّى

الظّاهر أنّ سكّان بولونيا قد استحسنوا وبشكل لافت المجهودات الجبارة التي بذلها بيساريون لخدمة مدينتهم، والتي أفضت إلى استرجاع هذه الأخيرة لمكانتها الرّائدة في شبه جزيرة إيطاليا. لكن، وبينما انهمك هذا الكاردينال في تأدية المهام الموكلة إليه، بلغ أسماعه نبأُ وفاة البابا نيقولاس الخامس، منية حدثت في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس عام 1455م. في الواقع سقط نبأ الوفاة هذا كالصّاعقة ليس على الوسط الديني فحسب، بل والفكري أيضا، ذلك أنّ الانسانيّين فقدوا في نيقولاس الخامس، إحدى القامات المحبّة للعلم والعلماء (Pastor (Le Dr. L.), T. II, 1911, P. 302 note 1).

وأمام شغور الكرسي البابوي، في هذا الظّرف الحرج الذي تمرّ به أوروبا والمتمثّل في الخطر الماحق للعثمانيّين اضطرّ بيساريون للعودة إلى روما، باعتباره عنصرا فاعلا في مجلس الكرادلة المقدّس، وذلك للمشاركة في انتخاب خليفة للبابا المتوفي، والأمل يذوده بأن يفوز بهذه المرتبة السّامقة.

وصل بيساريون إلى روما في شهر أفريل عام 1456م للمشاركة في عمليّة الانتخاب، بصفته مرشّحا أيضا. بدأت عمليّة التّصويت في جوّ خيّم عليه التّوتّر الشّديد والمنافسة الحادّة بين عدد من الكرادلة. ويبدو أنّ الحظّ قد ابتسم لبيساريون الذي حصل في بداية الجولة على ثمانية أصوات (Pastor (Le Dr. L.), T. II, 1911, P. 304).

نتيجة إيجابيّة حقّا، عبّرت بما لا يترك مجالا للشّكّ على الثّقة الكاملة التي وضعها في شخصه هؤلاء المصوّتون لصالحه، ليكون بيساريون على مرمى حجر من الجلوس على الكرسي المقدّس.

لكن، يبدو أنّ عمر سعادة بيساريون كان قصيرا، فما إنْ تبيّن أن فوزه أضحى مؤكّدا، ثار الجناح المعارض لشخصه، والذي تزعّمه الفرنسي ألان من كوتفي Alain de Coétivy، كاردينال كنيسة أفنيون – جنوبي شرق باريس على نهر الرّون Rhôme – وخلال الانتخابات صرّح هذا الرّجل وبنبرة مليئة بالحقد والكراهية تجاه بيساريون، قائلا: "**هل نمنح للكنيسة اللاّتينية شخصا إغريقيّا، لم يلحق بيساريون لحيته بعد، ويكون على رأسنا!! هل تفتقد الكنيسة اللاّتينيّة إلى هذا الحدّ للرّجال، ولم تجد شخصا جديرا بالعرش الرّسولي لتلجأ للإغريق؟... افعلوا أبائي ما يحلو لكم، أمّا بالنّسبة لي وكلّ من يقاسمني الرّأي، لن نقبل على الإطلاق بتعيين إغريقي ومنحه رتبة بابا**" Vast (H.), 1878, P.222; Pastor (Le Dr. L.), T. II, 1911, PP. 304- 305).

يبدو أنّ للجناح الفرنسي تأثيرٌ اللاّفت في مجلس الكرادلة هذا، لقد أتت معارضة كاردينال أفينيون ومن حذا حذوه بثمارها، لقد خسر بيساريون الانتخابات لصالح الكاردينال العجوز ألفونسو بورجيا[3] Alphonso Borgia (Fliche (A.) et victor (M.), 1951, PP. 38-44; Pastor (Le Dr. L.), T. II, 1911,

PP. 306- 307 et note 1, Bérence (Fred), 1966, P. 73; Runciman (Steven), 2007, P.239)، الذي اتّخذ بعد انتخابه اسم كالكست الثّالث Calixte III. هكذا، أصيب الكاردينال بيساريون بخيبة أمل كبيرة لعدم قدرته على افتكاك العرش البابوي، ليخرج من المنافسة مكسور الجناحين، جريح الفؤاد واعتبر ما حدث، اجحافا في حقّه، وصفعة موجعة على خدّه.

مهما يكن من أمر، فإنّ هذه الصفحة المؤلمة في المسيرة الدّينية للكاردينال بيساريون[4] (Pastor (Le (Dr. L.), 1911, T. II, P. 305)، لم تكن لتثنية قيد أنملة عن عزيمته الصّلبة وقناعته الرّاسخة لتأدية مهامه العليا لصالح الكنيسة الرّومانية بالخصوص المساهمة الفعّالة في دعوة حكام الغرب للمشاركة في حملة صليبيّة واسعة النّطاق لتطويق المدّ العثماني[5] (د. إينالجيك (خليل)، 2002، ص.ص. 14- 15).

هكذا، جلس كالكست الثّالث العجوز، على العرش البابوي، وكلّه حمّاس وعزم لتوجيه ضربة قاسمة للعثمانيين. وهو الهدف الذي صرّح به علنا في نصّ اليمين الذي أدلى به عقب تولية السدّة الرّسولية والذي جاء فيه: **"أنا كالكست الثّالث، بابا، أعد وأقسم للثّالوث المقدّس، الأب الابن وروح القدس، لأمّ الرّب عذراء دوما، للرّسولين القديس بطرس"**.

Pierre والقديس Paul .... - وإن اقتضى الأمر أن يسفك دمي-، بأن أعمل، في حدود قواتي وبمساعدة إخوتي الوقورين، سأفعل كلّ ما هو ممكن لاسترجاع القسطنطينية[6] (د. إيناجيك (خليل)، 2002، ص.ص. 41- 43؛ Marios Philippides, 1980, PP. 66-70; Runciman (Steven), 2007, PP. 197-211; Bréhier (Louis), 1992, PP. 420-428)، Constantinople التي تمّ الاستيلاء عليها وتحطيمها من طرف عدو المخلّص **"المصلوب"**، ابن الشّيطان، محمد أمير الأتراك، عقابا على آثام البشر...

إنّ ضوء العقيدة قد انطفأ - تقريبا- في هذه المناطق التّعيسة. إذا حصل أن نسيتك بيت المقدس [...] ليُصَبّ لساني داخل فمي بالشّلل ليكن لي الرّب مُعينا، وإنجيله المقدّس (Fliche (A.) et Martin (V.), 1951, T. XV, P. 39).

لا شكّ أنّ هذا التّصريح الشّديد اللّهجة الذي أدلى به البابا كالكست الثّالث، قد عبّر فيه بما لا يترك مجالا للشّك عن موقف عدائي وصريح حيال العثمانيين، وإن الحرب التي يسعى لشنّها يهدف من ورائها ليس استرجاع القسطنطينية فحسب بل وبيت المقدس أيضا، ما يدفع إلى القول.

أنّ البابا كاليكست الثّالث كان يرغب في إحياء الشّعلة الأولى للحرب الصّليبيّة في الواقع، كان لهذا الرّوح العدائيّة للبابا ما يفسّره في قول المؤرّخ فاست (هـ.) Vast (H.): **"لقد تنفّس [كالكست الثّالث] منذ طفولته الحقد تجاه الكفار [المسلمين]، وكان يسري في عروقه دم صليبي"** (Vast (H.), 1878, PP. 220- 222)، ذلك أنّ هذا البابا ولد وترعرع في بيئة اسبانية شهدت منذ القرن الثّامن الميلادي، تاريخ وصول المسلمين إلى إسبانيا، حروبا سجالا بين الوافدين الجدد وسكان المنطقة من المسيحيّين.

وقصد تنفيذ هذا المشروع الصّليبي الواسع النّطاق، أحاط البابا نفسه بثلّة من المستشارين اللاّمعين الذين لا يقلّ حقدهم الصّليبي تجاه العثمانيين حدّة عن ذلك الذي يحمله كاليكست الثّالث في وجدانه. ومن هؤلاء جان كابستران Jean Capistran والكاردينال الإسباني جان كافاجال Jean Carvajal ضف إلى ذلك الكاردينال بيساريون وغيرهم من رجال الدّين الفاعلين في الكنيسة الرّومانيّة آنذاك.

في إطار التّحضيرات المادية لخوض غمار الحرب، كان من الضروري توفير الموارد الماليّة اللاّزمة لمثل هذا الحدث العسكري الهام. وفي هذا السّياق، أصدر البابا كالكست الثّالث مرسوما بابويا فرض من خلاله رزنامة من الضّرائب التي من شأنها أن تضخّ للخزينة البابوية الأموال اللاّزمة لمثل هذا الحدث العسكري الهام (Vast (H.), 1878, P. 222). للحصول على تلك الثّروة، لم يتوان البابا حتّى عن بيع عدد من الجواهر النّفيسة التي تكتنزها خزينة البابوية، هذه الثّروة كانت فيما مضى تصنع مفخرة البابا مارتان الخامس. ضف إلى ذلك، عمد كالكست الثّالث إلى بيع عدد من القصور الرّائعة التي كانت تزخر بها إيطاليا (Bérence (F.), 1966, P. 74).

وفي آخر المطاف سمحت له هذه الإجراءات التي اتّخذها من جمع كميات هائلة من الأموال. وحتّى الجانب الفكري لم ينج بدوره، ذلك أنّ البابا كالكست الثّالث وجه نظره إلى عدد من المخطوطات النّادرة بأن أمر بنز التّجليد المصنوع من الذّهب والفضّة وكذلك الأحجار الكريمة التي كانت تزيّن هذه الثّروة الفكريّة الثّمينة ما من شأنه أن يجلب إضافة مالية لخزينة البابوية (Deluz (Pierre), 1960, P.284).

في نفس سياق التّحضيرات أيضا، لم يغفل البابا عن أهمّيّة الأسطول البحري في الصّراع المسيحي– العثماني، ولتحقيق الاستقلالية عن التّبعيّة للبنادقة الذين عرفوا بامتلاكهم واحدة من أهمّ الأساطيل آنذاك، عمد البابا إلى تأسيس أسطول بابوي، وقد حقّق بكلّ جدارة واقتدار نجاحا نسبيّا في ذلك الميدان (Bérence (F.), 1966, P. 74).

3. الكاردينال بيسارون في نابولي

وموازاة مع هذه التّحضيرات الماديّة الضّخمة، بدأت الآلة الدّبلوماسية البابوية تتحرّك في مختلف الاتّجاهات. في هذا السّياق، أرسل كالكست الثّالث، وفادة إلى مدينة نابولي يقودها الكاردينال بيسارون، الذي كلّف من لدن البابا بدعوة ملكها ألفونسو الأوّل[7] Alphonse I (Delumeau (Jean), Paris, 1974, PP. 36– 37)، لضرورة الانضمام إلى الحملة الصّليبية المتوقّع تسييرها إلى الشّرق لحرب العثمانيين.

توجّه المبعوث البابوي رفقة الوفد المرافق له إلى نابولي، وعند وصولهم إلى هذه المدينة خصّ الملك ألفونسو، ضيفه المميّز بيساريون باستقبال حار يليق بمقام هذا الكاردينال. كما أكرم الملك نازله بمجموعة من الهدايا الثّمينة (Vast (H.), 1878, P. 222)، وهو الأمر الذي استحسنه الكاردينال كثيرا. بعدها بدأت المحادثات الثّنائية بين الطّرفين. لقد أطلع بيساريون الملك بضرورة توحيد الصّف الأوروبي والمشاركة في الحملة الصّليبية التي تطمح الكنيسة تسييرها إلى الشّرق لتحرير القسطنطينية لتطويق المد العثماني قبل فوات

الأوان. لكن، على الرّغم من صعوبة الوضع، فإنّ الملك ألفونسو الأوّل لم يولّ صرخة البابا الأهمّية المنتظرة، وحجّته في ذلك انشغاله بما يهدّد مملكته، كما أطلع الملك المبعوث البابوي بعدم امتلاكه الأموال لمثل هذه الحملة العسكرية الواسعة النّطاق[8] (Fliche (A.) et Martin (V.), 1951, T. XV, P.40)، ليغادر الكاردينال بيساريون مدينة نابولي، خال الوفاض (Vast (H.), 1878, P.22).

في الواقع، نزل هذا الرّد السّلبي من لدن ألفونسو الأوّل، على البابا كالكست الثّالث، كالصّاعقة، لكن الأمر لم يثن عزيمته للمضيّ قدما في مشروعه الصّليبي. ففي شهر ديسمبر عام 1455م، عيّن البابا، الكاردينال سكارامبو Scarampo على رأس الأسطول البابوي برتبة أميرال أكبر وخلال الصّيف من العام 1456م، تمكّن هذا القائد من تحقيق انتصارات باهرة على العثمانيّين في ليمنوس Lemnos، تاسوس Tasos وسموتراس Samothrace، وهي مجموع جزر في بحر إيجه. ممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا الانتصار زرع الأمل مجدّدا في ربوع أوروبا، حتى تمّ الاعتقاد بأن الفرج قريب، مكسب ضخم يحسب للبابا كالكست الثّالث.

الجدير بالقول أنّ عمر هذا الانتصار كان قصيرا، ذلك أنّ الجزر المحرّرة ما فتئت تقسط مجدّدا في قبضة العثمانيّين، وإنّ مسؤوليّة هذا الوضع المأساوي وقع على حكّام أوروبا، لقد أظهروا مجدّدا تخاذلا منقطع النّظير بعدم التّدخّل لحماية هذه المكاسب المحقّقة[9] (Runciman (S.), 2007, P. 239; Pastor (Le Dr. L.), Op.cit., T. II, PP. 349- 350).

هكذا، على الرّغم من قصر مدّة ولايته البابوية التي دامت حتى السّادس من شهر أوت عام 1458م، (Deluz (P.), 1960, P. 286; Pastor (Le Dr. L.), 1911, T. II, P. 452)، فإنّ البابا كالكست الثّالث لم يتوقّف قيد أنملة عن دقّ ناقوس الخطر وتنبيه الحكّام في أوروبا إلى ما يشكّله العثمانيون من خطر ماحق على المسيحيّة قاطبة إنّه فارق الحياة حاملا في قلبه جرحا غائرا مردّه، فشله في استرجاع القسطنطينية وكذلك حزنه الكبير على ما آل إليه الغرب الأوروبي من تشتّت وانقسام في وقت كان فيه العثمانيّون على مرمى حجر من تحقيق اكتساح شامل لكامل العالم الأوروبي.

4. نشاط الكاردينال بيساريون أثناء الولاية البابوية لبيوس الثاني

هكذا، توفّي البابا كاليكست الثّالث، وأوروبا تمرّ بظرف حرج حقّا بسبب التّهديد العثماني المتنامي، وما يقابل ذلك من تشتّت للكاثوليك، وأمام هذا الوضع الخطير الذي لا يحتمل الانتظار، كان من المستعجل اختيار خليفة للبابا المتوفّي لتفادي شغور الكرسي البابوي من جهة، وتعيين شخص قادر على إقناع حكّام أوروبا بضرورة تجنيد حملة صليبيّة لتقويض الخطر العثماني.

في هذا السياق اجتمع أعضاء مجلس الكرادلة المقدّس، وكان من بينهم الكاردينال بيساريون، عام 1458 وبأغلبية الأصوات، نال إنياس سلفيوس بكولوميني[10] Deluz) Eneas Sylvius Piccolomini ((P.), 1960, PP. 286-288; Parisse (Michel), 2008, P. 278) شرف الجلوس على العرش

البابوي باسم البابا بيوس الثّاني Pie II إنّه رجل دين فذّ، سياسيّ محنّك، انسانيّ بارع وخطيب لامع (Bérence (F.), 1966, P.56).

في الواقع، لم يخرج البابا الجديد عن نهج الباباوات الذين سبقوه في العمل دون كلل أو ملل لخوض غمار الحملة الصليبيّة التي تحمل في طيّاتها "**خلاص أوروبا**"، في منظور الكنيسة. ومن هذا المنطلق، ترأس بيوس الثاني بين شهري سبتمبر وأكتوبر عام 1459م، مؤتمرا جرت أشغاله في مدينة مونتو Mantoue الواقعة في لومبارديا – شمال إيطاليا. وكان البابا قد وجّه دعوات إلى حكّام أوروبا لحضور فعاليّات هذا اللّقاء الهام، وكان الهدف تحديد الآليّات الضّرورية لشنّ حرب ضدّ العثمانيين.

لكن، رغم الحماس الفيّاض الذي أبداه هذا البابا الجديد، لكنّه سرعان ما أصيب بخيبة أمل كبيرة وذلك بسبب ما تمّ تسجيله من عزوف أغلب حكام أوروبا لحضور اللّقاء، لانشغالهم بمشاكلهم الدّاخلية وكأنّما أمر المسيحيّة لا يهمّهم. أمّا الذين لبّوا نداء البابا، دوق ميلانو فرانسوا الأوّل سفورزا François I Saforza (1450– 1466م) وكذلك سفير ألمانيا جريجوري هيمبورج Grégoire Heimburg، وأيضا ممثّلون عن جمهورية البندقيّة الإيطاليّة.

خلال هذا اللّقاء الهامّ ألقى بيساريون خطابًا مطوّلا، استهلّه بالثّناء على الباب بيوس الثاني بسبب المجهودات الجبّارة التي يبذلها في سبيل الذّود عن المسيحيّة وذلك حتى قبل صعوده على الكرسي البابوي. وبكفاءة ومعرفة مشهودتين، ضمّن بيساريون خطابه أيضا عرضا للمجازر التي اقترفها العثمانيّون في المدن التي استولوا عليها، وكان يطمح من وراء ذلك أن يحرّك ضمائر حكام أوروبا للنّهوض بصفة مستعجلة، وأنهى بيساريون تدخّله هذا بتوجيه نداء مستعجل لكافّة الأمراء والشّعوب المسيحيّة.

بعد هذا الخطاب المؤثّر، كان البابا يتوقّع هبّة شاملة، لكنّ شيئا من هذا لم يحدث، ذلك أنّ حتى أولئك الذين حضروا اللّقاء، جاءوا من أجل تحقيق مصالحهم الضيّقة فحسب، فالسّفير الألماني الذي كلّف نفسه عناء المجيء إلى إيطاليا قد وعد البابا بأن تشارك بلاد بقوّة عسكريّة معتبرة، متكوّنة من ثلاثين ألفا من الجند المشاة وعشرة آلاف فارس، لكن هذه المساهمة مرهونة بمساعدة البابا للإمبراطور فريدريك الثّالث[11] (De Cars (Jean), 2010, PP. 46– 47, 55; Rapp (F.), 2000, PP. 293, 317; Parisse (M.), 2008, PP. 310–311) للحصول على عرش المجر (Bérence (F.), 1966, P.79; Deluz (P.), 1960, P. 291). ومن جهتهم فإنّ البنادقة قد وعدوا بإمداد الجيش ببعض السّفن، شريطة تولّي قيادة العمليات البحرية وكذلك الاستحواذ لحسابهم على الغنيمة الحربية، لتفشل البابويّة مرّة أخرى في جمع شتات أوروبا حول هدف واحد.

5. وفادة بيساريون إلى ألمانيا

في الواقع، لم يكن اليأس لينال من البابا بيوس الثّاني بعد الفشل الذي مُنّي به مؤتمر مونتو، ذلك أنّ هذا الزّعيم الرّوحي الأعلى للكاثوليك ظلّ عازما على المُضيّ قدما دون كلل أو ملل للحصول على دعم حكّام

أوروبا لمشروعه الصليبيّ لمحاربة العثمانيّين. وبينما كانت الكنيسة في الغرب تشهد توتّرا شديدا وغير مسبوق بسبب هذا التّهديد الإسلامي، فإنّ أخبارا مأساوية تسقط عام 1460م كالصّاعقة، مفادها، إستيلاء الجيش العثماني على شبه جزيرة البيلوبنيز Péloponnése – جنوب بلاد الإغريق- جدير بالقول أنّ فقدان المسيحيّين لهذه المنطقة، قد جعل فرص تحقيق النّصر على العثمانيّين ضئيلة إلى حدّ كبير، لقد كان الأمل قائما حتى الأمس القريب أن تكون البيلوبنيز قاعدة لانطلاق الحملة لتحرير الشّرق كُلّه (Martin Jacqueline (E.), 2000, P. 176).

أمام هذا الوضع الذي يدعو إلى مزيد من القلق، بدأت الآلة الدّبلوماسيّة للبابويّة تتحرك لاحتواء الوضع. وهذه المرّة، حوّل البابا بيوس الثّاني نظره نحو ألمانيا التي كان له فيها تجربة سياسيّة باعتباره أحد مستشاري الإمبراطور فريدريك الثّالث، في الماضي قبل تولّيه للعرش البابوي. فكان أمله كبيرا أن تحرّك هذه الصّداقة الماضية مشاعر الإمبراطور للمساهمة الإيجابيّة في المشروع الصّليبي، ضف إلى ذلك، توقّع البابا مساعدة مماثلة من ألبرت Albert مارجراف[12] Margrave (Vogler (Bernard), 1997, P. 603) مدينة براندبورج Brandbourg الذي كان يتمتّع بشهرة عسكريّة في كامل ألمانيا (Pastor (Le D^{r}. L.), 1911, T. II, PP. 89- 90).

ولتحقيق هذا الهدف الدّبلوماسي، أرسل البابا إلى ألمانيا وفدا رفيع المستوى تحت قيادة الكاردينال بيساريون، وكان إلى جانب عدد من الإنسانيّين أبرزهم جيوفاني جاتي Giovanni Gatti الذي كان معروفا بضلوعه في اللّغة اللاّتينيّة (Monfasani (Jhon), 2011, PP. 36- 37).

أخذ المبعوث البابوي والوفد المرافق له الطّريق باتّجاه ألمانيا في شتاء قارص من عام 1460م، وعلى عاتقه الحصول على المساعدة العسكريّة المرجوّة، والتي كان من الضّروري أن تسبقها مهمّة أخرى تتمثّل في ضرورة إعادة السّلم والأمن إلى ربوع ألمانيا، التي أنهكتها الحروب الدّاخليّة الطّاحنة.

بالخصوص بين الأسرتين وتلسباخ Wittelsbach وهوهنزولرن Hohenzollern والتي ألحقت بألمانيا أضرارا فادحة وخسائر بشريّة جمّة (Pastor (Le D^{r}. L.), 1911, Vol. III, P. 150). جدير بالقول أنّ الفوضى واللاّأمن المنتشرين في ألمانيا قد كان لهما انعكاسا سلبيّا على مختلف مناحي الحياة. وفي هذا السّياق، ذكر المؤرّخ راب (ف.) Rapp (F.)، في حديثه عن التّجار الذين كانوا يتردّدون على مدينة فرانكفورت Franc Fort التي كانت تشتهر بمعارضها آنذاك، قوله: "**من كلّ حزمة من الأشجار، تنبجس جماعة من الفرسان النّهّاب**" (Rapp (F.), 2000, P. 293).

على الرّغم من هذه الأوضاع المتوتّرة التي لا تدعو إلى الطّمأنينة، لم يتردّد بيساريون في أداء مهمّته التي أسندت إليه على أكمل صورة.

في هذا السّياق، التقى في فيينا بالإمبراطور فريدريك الثّالث الذي خصّ هذا المبعوث البابوي بكلّ التّشريفات. وكان بينهما حديث مطوّل دار حول الوسائل الواجب اتّخاذها لإقرار السّلم في ربوع ألمانيا، وتوجيه

كافّة الإمكانيّات البشريّة والماديّة لحرب العثمانيّين. ومن جهة أخرى فقد استغلّ فريدريك الثّالث الفرصة لإطلاع بيساريون بخلافه مع ملك المجر ماتياس كورفين Mathias Corvin وهو الخلاف الذي توصّل المبعوث البابوي إلى إيجاد حلّ له، كما تمكّن أيضا من إصلاح ذات البين بين فريدريك وشقيقه ألبرت، وعقد بيساريون أيضا مصالحة بين الإمبراطور وابن عمّه سيجيسموند (Vast (H.), 1878, P.248) Sigismond.

إضافة إلى هذه المساعي السّلمية المحقّقة بين الأطراف المختلفة، أخذ بيساريون، رغم المرض الذي نال من جسده، يتنقّل بين مختلف المدن الألمانيّة، يدعو حيثما حلّ بضرورة وضع الخلافات الدّاخليّة جانبا وتوجيه كلّ الطّاقات المادية منها والبشرية، لمحاربة العثمانيّين، العدوّ المشترك للمسيحيّين برمّتهم.

حقيقة أنّ بيساريون لم يدّخر جهدا لتحقيق نتيجة إيجابيّة، لكنّه أصيب مرّة أخرى بخيبة أمل كبيرة لعدم استعداد الألمان لخوض غمار الحرب، وفي هذا السّياق ذكر المؤرّخ فاست (هـ.) (H.) Vast "**أنّ الألمان سدّوا الأذان، واعتبروا دعوات بيساريون بمثابة خرافات لا غير**" [13] (Fliche (A.) et ;1878, P.245 .(Victor (M.), 1951, T. XV, PP.34- 35, 57, 58

هكذا كُتب لمهمّة بيساريون مرّة أخرى الفشل الذّريع، وعاد إلى روما في العشرين من شهر نوفمبر عام 1461م، وهو يجرّ أذيال الخيبة، وقد نال منه المرض والإرهاق كثيرا، وذكر المؤرّخ باستور أنّ بيساريون "**غادر بلاد البرابرة، الذين لم يكنّوا إلاّ الاحتقار للآداب الإغريقيّة واللاّتينيّة**" (Pastor (Le Dr. L.), .(1911, Vol. III, P.150

6. بيساريون والبندقيّة

يبدو أنّ رحلة البحث عن قوّة أوروبية قادرة على تولّي قيادة العمليات العسكريّة ضدّ العثمانيين، ظلّت المهمّة التي أرّقت البابوية خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وبعد الفشل الذّريع الذي منّيت به وفادة بيساريون إلى ألمانيا، حوّل البابا بيوس الثّاني نظره صوب البندقيّة، الجمهورية الإيطالية التي تمكّنت أن تؤسّس ملكا تجاريّا عريضا في الحوض الشّرقي للبحر المتوسّط وكذلك البحر الأسود (د. إينالجيك (خ.)، 2002، ص.ص. 44- 47).

ومن أجل حماية هذه الامتيازات المحصل عليها، كان على البنادقة مواجهة كلّ الأخطار التي من شأنها المساس بمصالحهم في هذين الفضائيين الاستراتيجيّين. وفي هذا السّياق، وجّه البابا بيوس الثّاني نظره للبندقية بهدف دعوة سلطات المدينة لتسيير حملة صليبيّة إلى الشّرق لمحاربة العثمانيّين حماية للمسيحيّة والمصالح المختلفة للجاليات المسيحيّة في الشرق.

لتجسيد مشروع التحّالف هذا، بعث بيوس الثّاني وفدا هامّا يترأسه بيساريون، إلى البندقية في شهر جويلية عام 1463م. عند وصول البعثة البابوية إلى المدينة حضي بيساريون بالخصوص، بكلّ التّشريفات التي تليق بمقامه السّامق والتي خصّه بها الدوج كريستوف مورو Christophe Mauro الذي يعدّ من أبرز الشّخصيات العسكريّة في أوروبا خلال هذه الفترة.

وخلال هذه الزّيارة استغلّ بيساريون الفرصة ليلقي خطابا هامّا ومؤثّرا أمام أعضاء مجلس الشّيوخ البندقي، ذكّر خلاله بالأوضاع المأساويّة التي باتت تصنع يوميّات الأقاليم التي استولى عليها العثمانيّون.

وكشف للحاضرين الاستعداد الكامل للبابا وحماسه الفيّاض من أجل خوض غمار حملة صليبيّة للذّود عن المسيحيّة (Pastor (Le Dr. L.), 1911, Vol. III, PP.296- 297; Vast (H.), 1878, P.270).

واستغلّ بيساريون الفرصة أيضا لإغراء البنادقة، فقد وعد جميع الأطراف الفاعلة في هذه الجمهوريّة بدعم البابا الكامل في حال جسّد البنادقة المشروع الصّليبي. إنّه وعد مغر حقّا، لم يكن البنادقة يرغبون في التّفريط به. لقد أعاد إلى الأذهان أحداث الحملة الصّليبيّة الرّابعة لعام 1202م والتي تمكّن من خلالها البنادقة من الاستحواذ على النّصيب الأكبر من ثروات الإمبراطوريّة البيزنطيّة عقب سقوط القسطنطينيّة (عام 1204م).

ومن أجل الحصول على العائدات الماليّة اللاّزمة لهذه الحملة، اتّخذ بيساريون إجراءً غاية في الأهمّية، تمثّل في دعوة البنادقة للتّعامل مع شريحة اليهود القاطنين بهذه الجمهوريّة وفي هذا السّياق أيضا، رفع قيود الحرمان التي فرضها على هذه الجالية، كلّ من الدوج مورو وكذا عمداء الجامعات المختلفة (Vast (H.), 1878, PP.268- 269).

لكن، على الرّغم من المساعي الحثيثة والإغراءات المختلفة التي حملها بيساريون إلى البندقيّة، إلاّ أنّ دعوات البابا لم تجد آذانا صاغية. لقد عمل التّيار الذي يرغب في الحفاظ على حسن العلاقة مع العثمانيين حماية لتجارية الجمهوريّة، جهده لمنع تجنيد المدينة عسكريّا ما من شأنه أن يعصف بتجارة البندقيّة في الشّرق كلّه، وهو الأمر الذي عبّر بيساريون في الرّسالة التي بعث بها للبابا بيوس الثّاني في قوله بأنّ البنادقة كانوا يسعون لإيجاد عراقيل حتى لا يقطعوا علاقاتهم مع العثمانيّين[14] (Pastor (Le Dr.L.), 1911, Vol.III, PP.302- 303, 311; Deluz (P.), 1960, PP.292- 293; Bérence (F.), 1966, P.79).

7. بيساريون في فرنسا للقاء الملك لويس التّاسع Louis XI

شهدت السّتينيات وبداية السّبعينات من القرن الخامس عشر الميلادي تقدّما سريعا وخطيرا للنّفوذ العثماني الذي وصل إلى الجزء الشّرقي من أوروبا وبالخصوص منطقة البلقان الاستراتيجيّة.

ففي عام 1463م فرض العثمانيّون سيادتهم على منطقة البوسنة Bosnie – وبعد سنة من هذا الحدث جاء الدّور على ألبانيا الشّماليّة– Albanie.

ولم يكتف العثمانيّون بالعمليّات العسكريّة فحسب، بل تمّ اللّجوء إلى وسائل سلميّة لتحقيق الهدف، بأن تمّ التّخلّص من الأسر الحاكمة المحلّية في منطقة البلقان، بإبعادها عن مراكز السّلطة، مقابل منحها امتيازات مالية مغرية للبعض ومناصب في أقاليم بعيدة للبعض الآخر (د.إينالجيك (خ.)، 2002، ص.44).

وأمام هذا الخطر الزّاحف على الغرب الأوروبي، صعد البابا سيكست الرّابع[15] Sixte IV (Martin (E.), 2002, P.189; Vast (H.), 1878, PP.396-398 et note 2; Fliche (A.) et victor (M.), 1951, T. XV, P.74))، إلى الواجهة ليدقّ مرّة أخرى، كما فعل أسلافه من قبل، ناقوس الخطر أملا في أن يتحمّل حكّام الغرب الأوروبي المسؤوليّة في الذّود عن ما تبقّى من الكيانات المسيحيّة قبل فوات الأوان.

وفي هذا السّياق، وجّه البابا سكست الرّابع نظره صوب المملكة الفرنسية التي تعدّ واحدة من الكيانات الأوروبيّة الفاعلة على السّاحة الأوروبيّة آنذاك، وقد بيّنت التّجارب السّابقة أنّ فرنسا كانت الخزّان الذي خرج منه كبار فرسان أوروبا والذين ساهموا بشكل فعّال في مختلف الحروب الصليبية السّابقة (ق.11- 13م).

وبهدف لقاء ملك فرنسا آنذاك، لويس التّاسع[16] Louis IX (1461- 1483م) (Charles (F.), (Feuer (Didier), D'Hende court (Jean), 1989, PP.147- 151)، عيّن البابا سكست الرّابع، الكاردينال العجوز بيساريون، الذي يملك باعا طويلا في المجال الدّبلوماسي، لقد عوّل البابا كثيرا على حنكته وتجربته لكسب العاهل الفرنسي للمشروع الصّليبي.

أخذ بيساريون طريقه إلى فرنسا في العشرين من شهر أفريل عام 1472م، وقد نال منه الإرهاق والمرض كثيرا (La Russie et l'Orient, P.37; Martin (E.), 2002, P.228).

عند وصول المبعوث الباباوي إلى هذه المملكة، وجّه ثلاث رسائل، واحدة للملك لويس الحادي عشر وأخرى لدوق بريتاني Bretagne - غرب فرنسا- والثالثة لدوق بورجنديا Bourgogne - شرق فرنسا- دعاهم فيها إلى ضرورة إقرار الصّلح فيما بينهم واستغلال كلّ الإمكانات البشريّة منها والماديّة لحرب العثمانيين (Vast (H.), 1878, PP.412- 413).

وخلال هذه الزّيارة حظي المبعوث الباباوي بشرف لقاء الملك لويس التّاسع، هذا الأخير خصّ ضيفه بكلّ التّشريفات التي تليق بمقامه السّامق. وخلال المحادثات التي تمّت بين الطّرفين أعلم بيساريون الملك بفحوى زيارته، لكنّ العاهل الفرنسي ردّ على ضيفه بعدم امتلاكه للمال اللاّزم لخوض غمار الحرب (Vast (H.), 1878, P.415)).

في الحقيقة، يعدّ هذا الرّد من لدن الملك الفرنسي على الممثّل الباباوي حجّة للتّملّص من مسؤوليته لحمل السّلاح ضدّ العثمانيّين، فالواقع أنّه كان منشغلا بسياسته الأوروبيّة التي تهدف إلى توسيع ملكه في الدّاخل وفرض هيبته على السّاحة الأوروبيّة[17] (Dictionnaire des Rois, P.149)، لذلك، فإنّه لم يكن يرغب في إقحام قوّاته في "**مغامرة**" نحو الشّرق، مجهولة العواقب.

هكذا، وعلى إثر خيبة الأمل هذه، غادر الكاردينال العجوز فرنسا وهو يجرّ أذيال الخيبة مجدّدا، تاركا المملكة تتخبّط في حروب إقطاعيّة أبطالها الملك من جهة والأسياد والإقطاعيّين من جهة أخرى. لكن، شاءت الأقدار هذه المرّة أن لا يبلغ مدينة روما ليطلع البابا سيكست الرّابع بنتيجة وفادته إلى فرنسا، بسبب وفاته التي حدثت في مدينة رافينا Ravenne - على الأدرياتيك- يوم 18 نوفمبر 1472م (Vast (H.), 1878,

P.425)، من المحتمل جرّاء وعكة صحيّة أصابته، وقد حمل إلى قبره جرحا غائرا بعدم قدرته على إنقاذ الوطن الضّائع.

أمّا الكنيسة من جهتها، فقد كان لها بعد هذا الجهد الطويل والشّاق موقفا مشرّفا في سعيها الحثيث لتجنيد حملة صليبيّة ضدّ العثمانيّين، ولكن حكّام أوروبا قد خذلوها ولم يكونوا عند الموعد وهو موقف سلبي يسجّل على كلّ واحد منهم.

خاتمة

هكذا، تبيّن من خلال هذه الدّراسة أنّ بيساريون تمكّن بعد استقراره بشكل نهائي في إيطاليا من الولوج إلى الدّوائر العليا الدّينيّة منها والسّياسيّة. الواقع أنّ هذه المنزلة المرموقة التي بلغها تعدّ نتيجة حتميّة لكفاءته العلمية العالية، مستواه الرّاقي في الخطابة، وكذلك ثقافته المزدوجة، الإغريقيّة- اللاّتينيّة، إضافة إلى قدراته الدّينيّة.

وبتوفّره على هذه الشّروط، تمكّن بيساريون من كسب ثقة عدد من الباباوات الذين تربّعوا على العرش الرّسولي خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلادي. وفي هذا السّياق، قاد الكاردينال بيساريون عدّة بعثات دبلوماسيّة إلى مختلف البلاطات الأوروبية. لقد كان يكلّف كلّ مرّة بضرورة إقرار الأمن والسّكينة في المنطقة التي يحلّ بها، خدمة لهدف أسمى وهو توحيد المجهودات لشنّ حملة صليبيّة لمواجهة العثمانيّين.

تمكّن بيساريون من خلال هذه المهام من عقد علاقات صداقة مع عدد من الشّخصيّات النّافذة في أوروبا، لكنّه وعلى الرّغم من الحماس الفيّاض الذي أبداه، فإنّه لم يحصل حيثما حلّ على موافقة أصحاب القرار في أوروبا من تسيير حملة صليبيّة نحو الشّرق، **فهل أنّ الامتناع راجع إلى الافتقار للمال والجيوش اللاّزمة؟ أم إلى عدم الاكتراث بالمصير المشؤوم للإغريق "المنشقّين" كما ينظرون إليهم؟**

كشّاف المصطلحات (Glossaire):

(1) وللإشارة، فإنّ ما تعلّق بحياة بيساريون، مسيرته الفكرية وكذلك دوره اللاّفت في التّواصل الحضاري بين الشّرق الأرثودوكسي والغرب الكاثوليكي قد عالجته في مقال بعنوان: "**دور الكاردينال بيساريون في التّقارب الثّقافي بين الشّرق والغرب في القرن الخامس عشر الميلادي**". تمّ نشره في مجلّة "**أبحاث في العلوم التّربويّة والإنسانيّة والآداب واللّغات**"، مجلّة دولية أكاديمية محكّمة تعنى بدراسة العلوم التّربويّة والإنسانيّة والآداب واللّغات، تصدر عن جامعة البصرة، كلّية التربية للبنات في العراق ومركز البحث وتطوير الموارد البشرية، رماح- عمان- الأردن، المجلد 02، العدد 03 (16) بتاريخ 30/ 10/ 2021، (ص. ص. 145-165).

(2) اسمه المدني توماسو بارونتشللي Thommaso Parentucelli، ولد في سارزانا Sarzana عام 1397م وتوفّي في مدينة روما عام 1455م. يعدّ من أشهر الباباوات في القرن الخامس عشر الميلادي ومن الإنسانيّين البارزين أيضا، قيل حينما جلس هذا الشّخص على العرش البابوي "**بأنّ النّهضة قد جلست على عرش القديس بطرس**". عرف نيقولاس الخامس بشغفه الكبير بجمع المخطوطات القديمة اللاّتينيّة منها والإغريقيّة، أحاط الإنسانيّين بكلّ الرّعاية والاهتمام، إضافة إلى ذلك أبدى نيقولاس الخامس حسّا رفيعا للفنّ العمراني. في هذا الإطار شهدت مدينة روما في عهده، حركة ترميم وبناء غير مسبوقة. إنّه أمر بإصلاح عدد من المباني الكنسية، كما اهتمّ بشبكة الطّرقات وقنوات نقل المياه، وأثناء ولايته أيضا، بنى عددًا من القلاع هدفها حماية مدينة روما – العاصمة الرّوحيّة للكاثوليك- من الأخطار، المحدقة بها، ويعود الفضل لنقولاس الخامس في بناء مكتبة الفاتيكان، أحد المعالم الثّقافيّة البارزة في العصر الحديث. وعلى

فراش الموت، تبجح هذا البابا بمختلف الإنجازات التي حقّقها وفي نفس الوقت أبدى حسرة منقطعة النّظير لعدم قدرته على استرجاع مدينة القسطنطينيّة، القطب الثّاني للمسيحيّين.

(3) ولد عام 1378م في كزاتيفا Xativa قرب فالونسيا Valence الإسبانية. عرف بذكائه الحاد، دبلوماسي محنّك يروى أنّه عندما كان يقوم بعملية الوعظ prédication في مدينة البندقيّة، تنبّأ له أحد الأشخاص واسمه فنسون فيريي Vincent Ferrier، بأنّه سيحمل يوما التّاج البابوي. وعندما تحقّقت النّبوة، كافأ كالكست الثّالث، هذا الشّخص برفعه إلى مصّاف القديس. عُرف عن هذا البابا الجديد، ضلوعه في مجال القانون، لم يكن محبوبا عند الإيطاليّين بسبب مولده.

لم يحض الإنسانيّون خلال عهدة هذا البابا بالرّعاية اللاّزمة- أبدى ميلا شديدا لبني جلدته من الإسبان، كما منح الامتيازات والألقاب لعدد من أفراد أسرته، وقد جلس أحدهم وهو رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia على العرش البابوي باسم ألكسندر السّادس Alexandre VI (1492- 1503م).

(4) يرى المؤرّخ باستور Pastor أنّ الأسباب الحقيقيّة التي تكمن وراء قطع الطّريق أمام بيساريون للوصول إلى العرش البابوي، تتمثّل في عاملين هامّين، أمّا الأوّل فإنّه الخوف من خدش كبرياء الإيطاليّين من رؤية شخص من أصول إغريقيّة يشغل العرش البابوي. أمّا السّبب الثاني فهو يتعلّق بسياسة التّقشّف التي عرف بها بيساريون والتي رأى فيها بعض رجال الدّين في الدّوائر العليا أنّها ستؤثّر سلبا على مصالحهم الماديّة والامتيازات التي كانوا يتمتّعون بها.

(5) يعود أصل العثمانيين إلى آسيا الوسطى، هاجروا باتجاه الغرب ليستقرّوا في إيران وشرق الأناضول، ثمّ تابعوا مسيرتهم، ليستوطنوا هذه المرّة منطقة جبلية غرب الأناضول بين سلطنة السّلاجقة والإمبراطورية البيزنطيّة، وخلال الفترة الممتدّة بين 1260 حتى 1320م تمكّن الزّعماء التّركمان من تأسيس إمارات مستقلّة غرب الأناضول في الأراضي التي اقتطعوها من بيزنطة.

(6) بالفرنسية Constatinople أسّسها الإمبراطور الروماني قسطنطين الأوّل العظيم Constantin I le Grand (306- 337م). بنيت هذه المدينة على أنقاض مدينة صغيرة إسمها بيزنطة الواقعة على البوسفور، ومعنى اسمها "**مدينة قسطنطين**"، وقد تمّ تدشينها في شهر ماي عام 330م، ومنذئذ انتقل مركز ثقل الإمبراطورية إلى الشّرق بعدما كان في الغرب وعاصمته روما. فتحت هذه المدينة على يد السلطان العثماني محمد الفاتح عام 1453م، بعد أكثر من خمسين يوم من الحصار. وقد استبيحت المدينة لثلاثة أيّام كاملة. اتّخذ الحاكم العثماني هذه المدينة عاصمة له وصرّح قائلا: "**من الآن ستكون إستنبول عاصمتي**". وشكّل وقوع هذه المدينة في قبضة العثمانيّين نهاية الإمبراطوريّة البيزنطيّة الهللينيّة- الرّومانيّة، المسيحيّة.

(7) يعدّ من أهمّ أوروبا في النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلادي. أسّس إمبراطوريّة متوسّطيّة حقيقيّة، شملت كلّ من القسم الشّمال- الشّرقي لإسبانيا، جزر البليار Baléares، سردينيا Sardaigne، صقلية وجنوب إيطاليا. شهدت نابولي في عهده تطوّرا ملحوظا في شتّى الميادين، من ذلك أنّ صناعة الحرير عرفت إزدهارا لافتا. ومن جهة أخرى، فإنّه أوْلَى عناية خاصّة للجانب المعماري، وذلك بأنّ أمر بتزيين عدد من المباني التي كانت تعرف بها المدينة، إضافة إلى إسهامات أخرى.

(8) كان ألفونسو الأوّل في هذه الأثناء، يدعم زعيم المرتزقة واسمه بشينينو Piccinino العدوّ التّقليدي للبابويّة، ومن المحتمل أنّ البابا قد دعا الملك إلى التّوقّف عن ذلك التّعاون مع عدوّها.

(9) يعدّ الأميرال الأكبر سكارامبو من كبار الأغنياء آنذاك، يتمتّع بحنكة عسكريّة عالية، وهو الذي قام ببناء الأسطول البابوي في خريف عام 1455م بأمر من البابا كالكست الثّالث، وكان إلى جانب هذا الأميرال لجنة مكوّنة من شخصيات فاعلة، منهم بيساريون.

(10) واحد من أشهر البابوات خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي. ولد في الثّامن عشر من شهر أكتوبر عام 1405م في منطقة كورسينيانو Corsignano بمدينة سيان Sienne بتوسكانيا Toscane – إيطاليا الوسطى- ينتمي لأسرة نبيلة وثريّة، ولأسباب غير معروفة فقدت ثروتها. درس القانون في جامعة سيان. لكنّه سرعان ما ابتعد عن هذا المجال، لشغفه الكبير بالفلسفة والأدب الكلاسيكي. تتلمذ في فلورانسا على يدي فيللفو Filelfo أحد الانسانيين البارعين في القرن الخامس عشر الميلادي. في مجمع بال Bâle بسويسرا عام 1432م، بصفته سكرتيرا خاصا للكاردينال كابرانيكا Capranica. في إحدى لقاءاته بالإمبراطور فريدريك الثّالث Frédéric III عام 1442، بمدينة فرانكفورت، أعجب هذا الحاكم بقدرات إنياس الفكريّة فمنحه تاج أمير الشّعراء، واتّخذه مستشارا خاصا. ترك إنياس

عدّة كتابات تعدّ مصادر أساسيّة لعصره منها: **"تعليقات، كتاب حول الإمبراطور فريدريك الثّالث"** إضافة إلى مؤلّفات أخرى تخصّ الشّعر، التّاريخ، الجغرافيا وغيرها من الفنون الأخرى.

(11) من أشهر حكّام أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ينتمي لأسرة الهابسبورغ Habsbourg الشّهيرة. ولد عام 1415 في مدينة إنسبروك Innsbruck – النّمساوية– تولّى في بداية الأمر رتبة دوق على ستيريا Styrie كارنيول Carniole وكارنثيا Carintie – جنوب النّمسا– تزوّج في الثاني فيفري عام 1440 ملكا لجرمانيا، ثمّ امبراطورا يوم 17 جوان عام 1452 في مدينه روما، وهو المنصب الذي احتفظ به حتى وفاته المنيّة يوم التّاسع عشر من شهر أوت عام 1493م. عمل دون كلل أو ملل لبناء مجد لهابسبورغ، سلاحه في ذلك الصّبر. أدرك أهمّية الاصلاحات الدّاخليّة لبناء دولة قويّة، لذلك عمل على تطوير بعض الوظائف الإداريّة الحسّاسة، واهتمّ كثيرا برجال القانون.

(12) يرادف هذه الكلمة، استحدث هذا اللّقب، الذي يرادفه الماركيز marquis، من طرف الإمبراطور شارلمان Charlemagne هدفهم مراقبة الماركيات الحدوديّة. ومع احتلال أراضي الشّرق – شرق أوروبا– خلال القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر الميلاديّين، أصبح المارجراف أمراء محلّيين للإمبراطوريّة.

(13) أمّا الإمبراطور فريدريك الثّالث، فعلى الرّغم من صدق نيّته للوقوف إلى جانب البابويّة لتحقيق المشروع الصّليبي، إلاّ أنّه كان يواجه حينذاك صعوبات جمّة مع عدد من الأمراء الألمان المحلّيّين الذين رفضوا حمل الصّليب، وفي نفس الوقت كان هؤلاء بالخصوص، مطران مدينة ماينس Mayence ودوق منطقة التيرول Tyrol واسمه سجسموند Sigismund يكنّون عداءً سافرًا للكنيسة الرومانيّة، وقد عملوا جهدهم لإفشال مخطّطات بيساريون للحصول على الدّعم المطلوب من الألمان.

(14) على الرّغم من الانتكاسة التي أصيب بها البابا بيوس الثّاني وكذلك خيبة الأمل من عزوف حكّام الغرب الأوروبي عن تسيير حملة صليبية ضدّ العثمانيّين، إلاّ أنّ البابا بقي وفيّا للوعد الذي قطعه عند تولّيه العرش البابوي، بأن يقود بنفسه حملة نحو الشّرق. لقد كان عند وعده. إنّه ركب البحر، رغم هشاشة صحّته، ذلك أنّه كان يعاني من مرض النّقرس أو داء المفاصل وكذلك السّعال الدّائم، وإلى جانبه سفينتين بندقيّتين تحملان بدل المحاربين، أناسا بسطاء، البعض توفّي في الطّريق جرّاء الوباء، وآخرون بخيبة أمل بعدما أجهض الحلم في منتصف الطّريق بوفاة البابا بيوس الثّاني في الخامس عشر من شهر أوت عام 1464م في مدينة أنكونا Ancône ميناء إيطالي على بحر الأدرياتيك Adriatique وتقديرا له احتفظت مدينة أنكونا بقلب البابا، أمّا بقيّة الجسد فقد أرسل إلى روما. وممّا قاله حينما قرّر خوض غمار الحملة: "**ربّما حينما يرى حكّام الغرب أنّ سيّدهم في الدّين وأبوهم، أسقف روما، خليفة يسوع المسيح، شيخ مريض، سيحمرون من البقاء في ديارهم**".

(15) إسمه المدني فرانشيسكو دلا روفير Francesco delle rovere بالفرنسيّة François de la Rovère. أصله من منطقة ليجوريا Ligurie – الواقعة شمال إيطاليا– ينتمي لهيئة الفرنسيسكان التي عينّ قائدا لها عام 1464م. درس في جامعتي بافيا Pavie – شمال إيطاليا وبولونيا Bologne– الواقعة على الأدرياتيك. عُرف بضلوعه في علم اللاّهوت. ترك عدّة مؤلّفات لاهوتيّة منها كتابه حول (دم سيّدنا المسيح). تولّى العرش البابوي يوم 9 أوت 1471 حتى عام 1484م، وخلال عمليّة الانتخاب كاد الكاردينال بيساريون أن يفوز بهذا الكرسي السّامق، للمرّة الثّانية في حياته، لولا معارضة التّيار الفرنسي في مجلس الكرادلة، كما حصل على أوّل مرّة.

(16) ولد عام 1423م في منطقة بورج Bourges – جنوب مدينة باريس. توفّي عام 1483 في بليسر– ليز– تور Plessis– Lez– Tours في منطقة لور Loire. هو ابن الملك شارل السّابع Charles VII وماري أنجو Marie d'Anjou. كان تقيّا عرف بعصبيّته. تميّز بالذّكاء الحاد، دبلوماسي محنّك، لا يتردّد في نقض العهد إذا كان ذلك يخدم المصلحة العليا للدّولة. أحاط نفسه بمستشارين أكفاء منهم فرانسوا سفورزا François Sforza من ميلانو الإيطالية، لكنّه كان يتّخذ القرارات بشكل فردي. اهتمّ بمختلف الشّرائح الاجتماعيّة. اعتبر الاقتصاد العصب الحيوي للدّولة. في عهده تطوّرت مختلف الصّناعات الحديديّة والمنجميّة بشكل خاص.

(17) كان على الملك لويس التّاسع محاربة دوق بورجنديا Borgogne – شرق فرنسا– واسمه Charles le Téméraire (1467–1477م) الذي استقوى بزواجه من مارجريت Marguerite من يورك York شقيقة الملك الإنجليزي إدوارد الرّابع Edouard VI.

البيبليوغرافيا:

1- د. إينالجيك (خليل)، 2002، **تاريخ الدّولة العثمانية من النّشوء إلى الانحدار**، ترجمة د. محمد م. الأرناؤوط، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، دار المدار الإسلامي.

1- Bérence (Fred), 1966, **Les Papes de la renaissance du concile de constance au concile de Trente**, Paris, édition du Sud.

2- Bréhier (Louis), 1992, **Le monde byzantin, I- vie et mort de Byzance**, édition Albin Michel,.

3- Delumeau (Jean), 1974, **L'Italie, de Botticelli à Bonaparte**, Paris, Arnaud Colin.

4- De Cars (Jean), 2010, **La saga des Habsbourg du Saint Empire à l'union Européenne**, Perrin.

5- Deluz (Pierre), 1960, **Histoire des Papes**, Paris, Tome I, Édition Albin Michel.

6- Feuer (Didier), D'Hende court (Jean), 1989, **Dictionnaire des Rois et des reines de France**, sous la direction de Dupêchez Charles, (F.), Le grand livre du Mois.

7- Fliche (Augustin) et Martin (Victor), 1951, **Histoire de l'église**, tome XV, Bloud et Gay ed.

8- Goubert (Pierre), **Initiation à l'histoire de la France**, Fayard/ Tallendier, S/D.

9- Le P. Pierling (S.J.), 1896, **La Russie et le Saint-Siège**, Études diplomatiques, I- Les Russes au concile de Florance, mariage d'un Tsar au Vatican, Les papes Médicis et Vasili III, mystification et projets d'ambassade, Paris, Librairie Plon.

10- Martin (Jacqueline (E.), 2000, **Cardinal Bessarion, Mystical theology and spiritual union between East and West,** (A Thesis submitted to the Faculty of Graduate studies in partial full fillement of the requirements for the degree of doctor of philosophy Deparetement of History, University of Manitoba, winni peg, Manitoba, (C).

11- Monfasani (Jhon), 2011, **Bessarion Scholasticus: A study of Cardinal Bessarion's latin library**, Turnhout, Belgium, N.V., Brepols Publishers.

12- Parisse (Michel), 2008, **Allemagne et son empire au Moyen Âge**, Paris, 2ème édition revue et augmentée, Hachette livre.

13- Pastor (le Dr. Louis), 1911, **Histoire des Papes depuis la fin du Moyen age, ouvrage écrit d'après un grand nombre de documents inédits extrais des archives secrètes du Vatican et autres**, traduit de l'Allemand par Raynaud (Furcy), Paris, Tome Second, Librairie Plon.

14-_____,1909, **Histoire des Papes depuis la fin du Moyen age, ouvrage écrit d'après un grand nombre de documents inédits extrais des archives secrètes du Vatican et autres**, traduit de l'Allemand par Raynaud (Furcy), Paris, Tome troisième, treizième edition, librairie Plon.

15- Rapp (Francis), 2000, **Le saint Empire Romain Germanique**, D'otton le Grand à Charles Quint, Tallendier.

16- Runciman (Steven), 2007, **La chute de Constantinople 1453**, traduction revue, et corrigée et annotée par Hélène Pignot, édition Tallendier.

16- Sphrantzes George, 1980, **The fall of the Byzantine empire**, Translated by Marios Philippides, The University of Massachusetts pess, Anherst.

17- Vast (Henri), 1878, **Le Cardinal Bessarion (1403- 1472), Étude sur la chrétienté et la renaissance vers le milieu du XVe siècle**, Paris, Librairie Hachette.

18- Vogler (Bernard), 1997, **Article «Margrave», dans dictionnaire du Moyen Âge, histoire et société**, Paris, Encyclopaedia universalis, Albin Michel.